



في مسلح صبرا، يعمل الطفل السوري محمد، الآتي مع عائلته هرباً من معرة النعمان. يبدأ شغله عند الساعة العاشرة ليلاً ويستمر إلى العاشرة من صباح اليوم التالي. يقبض راتباً أسبوعياً "مرموقاً" يراوح بين عشرة آلاف ليرة وخمس عشرة ألف ليرة.

أحياناً يمتد دوام عمله إلى الظهر، فيكون مجموع ما يمضيه في المسلح نحوً من أربع عشرة ساعة في غالبية أيام الأسبوع.

وحيث يعود إلى المنزل، لا يكون يملك القوة لخلع ملابسه ولا لتناول الطعام، بل يغطّ في نوم عميق، واجداً فيه سعادته الوحيدة. وكم من المرات، كانت شقيقته تلجمه الطعام وهو نائم، من جراء الإنهاك الذي يعتري جسده الهزيل. لا يعمل محمد في إحدى المهن المعروفة والمتداولة كالحدادة أو البويا أو الميكانيك، بل يعكف على تنظيف الكروش والمصارين ونقل أفخاذ اللحوم وتصدورها إلى حيث تنتظر السيارات في مرأب أمام المسلخ. من الآثار المترتبة على هذا العمل المضني، أن رقبته تعرضت للالتواء، ولالتهاب مزمن، بسبب المشقات الناجمة عن عمليات النقل المرهقة. "معلّمه" لا ينادونه باسمه، بل بعبارات ليس من اللائق إيرادها في هذا الموقع، بسبب ما تنتهي عليه من ابتذال وسوقية

ومهانة.

عندما اقتربت منه لأنقط له صورة تذكارية، لم يتمكن من إخفاء نظره ملأى بالأسى، كافية لاختصار الحال النفسية التي تضطرم في دواخله مما آلت إليه حياته.

روى لي أنه كان يتمنى لو استطاع الانضمام إلى إحدى المدارس في المنطقة، ليتعلّم ويعيش ما يعيشه الأطفال والفتىان الذين من عمره، لكن والده حضنه على العمل للمساهمة في ردّ غائمة الجوع عن إخوته وأخواته.

حدثني بأسى عن البرد الذي يغمر جسده بسبب المياه والرطوبة التي تسرب إلى ثيابه في المسلح. وأخبرني أنه تعرض أكثر من مرّة للتعنيف، وأحياناً للضرب، على أيدي زبائن، بسبب هفوات صغيرة قد تكون نجمت عن إتيانه هذا العمل الشاق.

يبلغ محمد الحارية عشرة من عمره، وهو من عائلة سورية تتألف من الأب والأم وأربعة صبيّة وخمس بنات، الكبّرى بينهن في السادسة عشرة من عمرها، وهي على وشك الزواج من شاب سوري.

أما "البيت" الذي ستنتقل إليه، فلا يفصله عن مكان سكن العائلة إلا "برداية" فاصلة داخل الغرفة نفسها.

هربت العائلة إلى لبنان منذ خمسة أشهر، بعدها طاولها التهجير في مسقطها، ولم تجد مكاناً تلّجأ إليه إلا في مخيّم الداعوق الملافق لمخيّم سعيد غواش، على أطراف مخيّم صبرا.

شقيقه أيمهم، تسع سنوات، يعمل في محلّ لبيع الخضر، ويقبض ألف ليرة يومياً لقاء نهار كامل يمضيه من السابعة إلى السابعة في المحل المذكور.

شقيقه الآخر عبد، يبيع البالونات في أزقة المخيّم، وهياهات أن يعود مساءً إلى البيت وفي يده ما يضيّفه إلى "صندوق" العائلة لدفع إيجار "المنزل" البالغ شهرياً 500 ألف ليرة.

شقيقه الصغرى، حلا، البالغة من العمر سنة ونصف السنة، رأيتها وأنا أغادر المخيّم تلحس "مرطباتها" كان على الأرض، علقت عليه بقايا مربي الممشمش.

الجمعية التي تهتم بأوضاع السوريين هناك، تعتقد أن وضع هذه العائلة مريح نسبياً، لأنّ ثلاثة من أفرادها "يجنون" المال. لكن، كم يجني هؤلاء؟ ولقاء كم من الساعات؟

إنهم يجنون ما مجموعه حوالي خمس وعشرين ألف ليرة في الأسبوع، لقاء 12 ساعة عمل لكلّ من هؤلاء "العمال" الأطفال الثلاثة!

النهار

المصادر: